وجهة نظر بالإصغاء إلى كلام الله في الحياة المكرسّة

مكاريوس جبّور

كم كثُر الكلام في عالمنا الحاليّ، وكم قلّ الصمت! وكم أصبح موضوع الإصغاء صعبًا في عصرنا الحاليّ حيث الجميع يتكلّمون وليس من مُصغٍ! والأصعب من هذا كلّه أنّ اللغة ضعُفت معنًى ومبنًى ومحتوًى! فكيف السبيل إذًا للكلام عن الإصغاء أحدنا للآخر، خاصّة وأنّنا لا نكفّ عن التكلّم بدون هوادة مردين، كلّ واحد منّا، إثبات ذاته وفرض كلامه وأقواله وآرائه؟ وبالتالي كيف السبيل للحديث عن الإصغاء لكلام الله الصامت، أو لصوته غير المسموع بالأذن الحسيّة، أو لندائه غير المُدرك بالعقول الماديّة؟ إنّه أمر في غاية التعقيد والصعوبة.

أسئلة كثيرة تُطرح! والأجوبة عليها قليلة.

وإذا كان الإصغاء إلى كلام الله وصوته في الحياة المكرّسة " **يغذّي علاقة شخصيّة بالإله الحيّ وبإرادته المخلّصة والمقدّسة** "[1]، فهذه العلاقة يجب أن ترتكز على نوع من الإصغاء العمليّ غير المرتبط بالتفسير والتأويل والبحث.

أوّلاً: لغة الله

بداية يجب علينا التسليم بفرضيّة أنّ لله لغة تختلف عن لغتنا، ومنطقًا يُغاير منطقنا، وبالتالي كلامًا مفارقًا لكلامنا. نعم إنّ الله تكلّم ويتكلّم بشكل مختلف وهو الذي " **بعد أن كلّم الآباء قديمًا كلامًا مختلف الأنواع** " (عبرانيّين 1: 1). لقد تكلّم في أفعاله قبل أن يتكلّم بلغة ما، والأمثلة لا عدّ لها ولا حصر: من الخلق إلى إرسال ابنه يسوع المسيح، ثمّ الروح القدس... الخ. وقد سبق للفيلسوف إبيكتيت (Epictète) أن صرّح "**يقول الفلاسفة: إنّ أوّل مبدأ يجب تعلّمه هو التالي: يوجد إله، وهو يمارس عنايته على الكون، ولا تستحيل تخبئة أعماله فحسب، بل نواياه وأفكاره أيضًا**"[2]، وبالتالي فكلام الله وأفكاره لا يمكن أن تُوضع في الخفاء إلاّ عند مَن يريدون فعلاً إخفاءها أو نكرانها، وكلام الله فعل قبل أن يكون مجموعة أقوال.

ثانيًا: ما هو الكلام الذي يتكلّم به الله؟ أو ما هي لغته؟

إنّها لغة الواقع والبرهة الحاليّة، وهي عينها لغة الصمت، والهمس والصراخ، والجمال والقباحة، والصحّة والعافية والمرض... وليس الكتاب المقدّس كلام الله الحصريّ. الحياة نفسها لغة الله والموت أيضًا. وبالتالي أمام لغة الله المستحيلة الفهم إلى حدّ كبير، يجب أن يكون الإصغاء كاملاً وشاملاً ومطلقًا وعلى امتداد العمر، وهو أقصر ممّا نظنّ!

إنّ كلام الله هو حكمة مطلقة تتطلّب صمتًا وإصغاءً كلّيَّين. وهذه الحكمة بقدر ما هي صعبة وعصيّة الفهم، بقدر ذلك بسيطة وسهلة وليّنة.

وبما أنّنا نتكلّم عن الإصغاء، لا عن السماع أو الاستماع، لذلك يجب علينا القول إنّ كلّ امرء يستطيع، في كلّ لحظة، الاستماع إلى كلام الله المُعلن هنا وهناك، غير أنّ الاستماع شيء، والإصغاء، وبالتالي الغوص في أعماق هذا الكلام، شيء آخر. وقد سبق الربّ وميّز بين السماع والإصغاء عندما قال: " **يسمعون سماعًا ولا يفهمون** " (متّى 13: 13). من هنا حتّى السماع أو الاستماع لا يحتّم فرضيّة الفهم، وبإمكان أيّ واحد منّا الاستماع إلى أغنية أو إلى كلام بلغة لا يفهمها. غير أنّ الأصعب من هذا كلّه أن يستمع المرء إلى كلام يُنطق به بلغته التي يعرفها بدون أن يفهم منه شيئًا، كاستماع أمّيّ إلى محاضرة مختصّصة في الطبّ فلا يفهم منها شيئًا. وفي جميع الأحوال لا ينطبق هذا الحديث على الإصغاء إلى كلمة الله.

في الواقع، يتطلّب الإصغاء إلى كلام الله مسيرة شاقّة ومليئة بالعثرات. وهذا ما أدركه أناس كثيرون، فاختاروا طريقًا أخرى، هي طريق الابتعاد عن الضجيج والضوضاء. من هنا نشأت الحالة الرهبانيّة التي من إحدى مقوّماتها الابتعاد عن ضوضاء العالم، والتكرّس للصمت من أجل الولوج في عالم الله والإصغاء إليه.

---

[1] البابا يوحنّا بولس الثاني، إرشاد رسولي في الحياة المكرّسة، إلى المصفّ الأسقفي والإكليروس والجمعيّات الرهبانيّة وجماعات الحياة المكرّسة وجميع المؤمنين، 1996، صفحة 177.

[2] Épictète, **Entretiens,** Livre II, Collection des Universités de France, Société d'Édition "Les Belles Lettres", Paris, 1949, Chapitre XIV, p. 55. Traduit par Joseph Souilhé.

ولكن ما هي الغاية من الإصغاء إلى كلام الله؟

لم يكن الاستماع أو الإصغاء في حياة الإنسان إلاّ للمعرفة من جهة، والاستمتاع من جهة ثانية، وبالتالي ينطبق هذا الأمر على الإصغاء إلى كلام الله. فالغاية هي معرفة الله، وهذه المعرفة توصل الإنسان إلى خلاص نفسه والآخرين.

كتب اللاهوتي الأرثوذكسي يوأنّيس رومانيديس: **" لا تنتج معرفة الله عن الإيمان بالعقل، بل عن خبرة الاستنارة التي هي صلاة القلب بالروح القدس"**[٣]. من هنا يبدأ الإصغاء عندما نبدأ بالمناجاة. ويبدأ الإصغاء عندما نبادر بالحوار مع الله. هذا الحوار الذي من إحدى شروطه الأساسيّة الابتعاد عن الضوضاء. **"عندما كان الأب أرسانيوس في البلاط، كان يصلّي إلى الله قائلاً: يا ربّ، عرّفني كيف أخلص. فجاءه صوت يقول: أرسانيوس أرسانيوس، اهرب من الناس تخلص.**

وعندما انقطع أرسانيوس إلى حياة التوحّد، صلّى الكلام نفسه، فسمع صوتًا يقول له: أرسانيوس، اهرب واصمت واهدأ، لأنّ هذه هي جذور عدم الخطيئة"[٤].

نحن بحاجة إلى هذا الهروب وهذا الصمت لكي نتمكّن من الإصغاء إلى كلام الله. أمّا الهروب، فمن أجل تطهير الأذنَين وسائر الحواس وتعويدها على الارتقاء من المحسوسات إلى غير المحسوسات. وأمّا الصمت، فهو السبيل الوحيد للإصغاء.

ومن خلال هذا الصمت وهذا الهروب، يصل المرء (المكرّس خاصّة) إلى تمييز الأصوات والكلام، ويعرف صوت الله، ويبدأ بالإصغاء إليه.

ثالثًا: الدليل على الإصغاء لكلام الله

يؤدّي الإصغاء الحقيقيّ إلى كلام الله، إلى فهم معنى دعوته لكلّ إنسان، وخاصّة لمَن تكرّس في حياة رهبانيّة أو كهنوتيّة. كلّ صوت أو كلام نطق وينطق به الله، موجّه إليّ لأجل غيري، **" لأجل الأخ الضعيف الذي مات المسيح من أجله"** (كورنثس الأولى 8: 11).

قال الربّ: **"أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ ذهنك وكلّ نفسك. هذه الوصيّة الأولى والعظمى. والثانية تشبهها: أحبب قريبك كنفسك "** (متّى 22: 37-39). وسواها من النصوص الإنجيليّة التي لا حصر لها، تُضاف إليها الرسائل وحياة القدّيسين.

بكلمة إنّ الدليل على الإصغاء لكلام الله أو لصوته، يتجسّد في واقع الحياة اليوميّة.

هذا ما نراه في حياة كبار المكرّسين. قال البارّ إفاغريوس البنطي: **"كان لأحد الإخوة إنجيل لا يملك سواه، فأقدم على بيعه معطيًا ثمنه لإطعام الجياع، وإذ ذاك تلقّظ بالكلمة المأثورة: لقد بعت الكتاب الذي كان يقول لي: "بع كلّ ما تملك وتصدّق بثمنه على الفقراء"** [٥].

وقال البارّ أغاثون: **"إنّي ما رقدت قطّ وأنا حاقد على إنسان، ولا تركت إنسانًا يرقد وهو حاقد عليّ، هذا ما فعلته على حسب طاقتي"**[٦] (أفسس 4: 26؛ روما 12: 8).

وهو نفسه **"مضى مرّة ليبيع عمل يديه، فوجد إنسانًا غريبًا مطروحًا عليلاً وليس له مَن يهتمّ به. فحمله واستأجر له بيتًا، وأقام معه يخدمه، ويعمل بيديه ويدفع أجرة المسكن، ويُنفق على العليل مدّة أربعة أشهر حتّى شُفي. وبعد ذلك انطلق إلى البريّة، وكان يقول: كنتُ أشاء لو وجدتُ رجلاً عليلاً يأخذ جسدي ويعطيني جسده"**[٧].

وقد كان البارّ إشعيا يعلّم تلاميذه قائلاً: **"لنلازم محبّة المساكين لنخلص من حبّ الفضّة"**[٨].

---

[3] Spiteris Yannis, **La teologia ortodossa neo-greca**, Edizioni dehoniane, Bologna, 1992, p. 287.

[٤] **أقوال الآباء الشيوخ**، منسورات النور، بيروت، صفحة 47.

[٥] البنطي إفاغريوس – مرقس الناسك، **فصول في الصلاة والحياة الروحيّة**، آباء الكنيسة 5، منشورات النور، بيروت، 1983.

[٦] **بستان الرهبان لآباء الكنيسة القبطيّة**، الطبعة الثانية، مكتبة السائح، طرابلس–لبنان، 1976، صفحة 66.

[٧] المرجع السابق، صفحة 67.

[٨] المرجع السابق، صفحة 155.

وقال البارّ تيموثاوس: **"إنّ شئت أن تُصادق الله، فلا تُحزن أحدًا من الناس، حتّى ولو أكثر الإساءة إليك، بل اترك الأمر لله"**[٩].

وأمثلة كثيرة يمكننا أن نقرأها في حياة القدّيسين وأقوالهم.

والحياة المكرّسة، اليوم، تحتاج إلى إصغاء واقعيّ وغير مأوّل لكلام الله، والمثل على ذلك قول القدّيس يوحنّا السلّمي: **"لم يكن أثر لحبّ المال عند أيّوب ولذا بقي في سلام لمّا فقدَ كلّ شيء"**[١٠].

هكذا نشأت الحياة المكرّسة على قراءة وإصغاء عمليَّين لكلام، وهكذا عاش نجومها عبر العصور.

واليوم تتعرّض الحياة المكرّسة إلى أخطار ثلاثة: أوّلاً: حصر كلام الله أو صوته بالكتاب المقدّس. ثانيًا: اعتبار قراءة الكتاب المقدّس والنصوص اللاهوتيّة وتفسيرها إصغاءً إلى كلمة الله. ثالثًا وهو الأهمّ: نسيان أنّ كلام الله موجّه لكلّ إنسان، وإنّنا نسمعه ونصغي إليه في جميع الكائنات وخاصّة في الإنسان القريب. ليس الإصغاء إلى كلام الله هدفًا بحدّ ذاته، بل الإصغاء إليه بهدف عيشه هذا هو المطلوب. وقد سبق للرسول بولس أن علّمنا الدرس الأهمّ: **"وددتُ أنا نفسي أن أكون مبسلاً عن المسيح من أجل إخوتي"** (روما 9: 3).

---

[٩] المرجع السابق، صفحة 430.

[١٠] القدّيس يوحنّا السلّمي، **السلّم إلى الله**، منشورات التراث الآبائي، بيروت، 2006، صفحة 154.